﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾ [النحل: 77]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبة الآية لما قبلها وجهان:

الأوّل: أنَّ اللّهَ تعالى لمّا ذكَرَ في الآيةِ السّابقة مَثَلَ الأصنام بالأبكَم العاجِز، ومَثَلَ نَفسه تعالى بالّذي يأمُرُ بالعَدلِ، وهو على صِراطٍ مُستقيمٍ - ومعلومٌ أنَّه يَمتَنِعُ أنْ يكونَ آمرًا بالعَدلِ، وأنْ يكونَ على صراطٍ مُستقيمٍ إلّا إذا كان كاملًا في العِلمِ والقُدرةِ - ذكَرَ في هذه الآيةِ بَيانَ كَونِه كاملًا في العِلمِ والقُدرةِ، فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1].

مَن يكون آمرًا بالعدلِ، وعلى صراط مستقيم، لابدّ أنْ يكون كاملَ العلم والقدرة

الثاني: لمّا فرغ ﷻ من ذِكْر المَثَلَين مدح نفسه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ ﷻ خاصّة لا لأحدٍ غيره ﴿غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَيۡبُ﴾: أصلُ (غيب) يَدُلُّ على تَستُّرِ الشَّيءِ عَنِ العُيونِ، ومِنْ ذلك الغَيْبُ: ما غابَ ممّا لا يَعْلَمُهُ إلّا اللّه[3]، وكلُّ مكانٍ لا يُدْرَى ما فيه فهوَ غَيْبٌ، وكذلكَ المَوْضِعُ الَّذي لا يُدْرَى ما وراءَه[4]، والغَيْبُ: ضِدُّ الحُضورِ، وضِدُّ المُشاهَدَةِ، فهو كلُّ ما غاب عَنِ العُيون سَواءٌ أكانَ مُحصَّلًا في القُلوب أم غَيْرَ مُحصَّل[5]، ويُقالُ للشَّيءِ: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى، فإنَّه لا يغيب عنه شيءٌ، كما لا يعزبُ عنه مثقال ذرَّة في السَّموات ولا في الأرض[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 249، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 220
(2) مُحمّد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 310.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غيب).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (غيب).
(6) الرّاغب، المُفردات، ص: 616.

والمقصودُ بالغَيبِ في الآية: الغائبُ عن أعْيُنِ النّاسِ من الأشياءِ الخَفيَّةِ والعَوالمِ الَّتي لا تَصِلُ إلى مُشاهَدَتِها حَواسُّ المَخلوقاتِ الأرْضِيَّة ولا تحيط بكُنْهِه العقول[1]، أو المُراد بغيب السّماوات والأرض: يوم القيامة[2].

2) ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: أصْلُ (سوع): يَدُلُّ على اسْتِمرارِ الشَّيْءِ ومُضيِّهِ، مِنْ ذلكَ السّاعَةُ سُمِّيَتْ بذلكَ، يُقالُ: جاءَنا بَعْدَ سَوْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وسواعٍ؛ أيْ: بَعْدَ هَدْءٍ مِنْهُ[3]، والسّاعَةُ: الوقت الحاضر، وهي في الأصْلِ تُطْلَق بمعْنيَيْن: أحدُهما أنْ تكونَ عِبارَة عَنْ جُزءٍ مِنْ أربعةٍ وعِشْرينَ جُزءًا هِيَ مجموعُ اليَوْمِ واللَّيْلَةِ، والثّاني أنْ تَكونَ عبارةً عَنْ جُزءٍ قَليلٍ مِنَ النَّهارِ أوِ اللَّيْلِ، يُقالُ: جلستُ عِنْدَكَ ساعَةً مِنَ النَّهارِ؛ أيْ: وقْتًا قليلًا منه، ثُمَّ استُعِير لاسْم يَوْمِ القِيامَةِ[4]، قيل: سُمِّيَت بذلكَ لأنَّها تَفجأُ النّاس في ساعَةٍ، فيَموت الخَلْقُ كلُّهُم عِنْد الصَّيْحَة الأولى[5]، أو أُطلقت على القيامة باعتبارها الأمد، أو غاية المهلة الّتي أُمهلها النّاس على الأرض[6]، والمُراد بـ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ في الآية: عِلْمٌ بِالغَلَبَةِ على وقت فناء هذا العالَمِ، وهي مِن جُملَةِ غَيْبِ الأرْضِ[7].

3) ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾: أصلُ (لمح): يَدُلُّ عَلَى لَمعِ شَيءٍ، يُقالُ: لَمَحَ البَرْقُ والنَّجْمُ لَمحًا، إذا لَمَعا، واللَّمحةُ: النَّظْرة[8]، ولَمَحَ إليه يَلْمَحُ لَمحًا وألْمَحَ: اخْتَلَسَ النَّظَرَ، وكذا إذا أبصره بِنَظَرٍ خَفيفٍ، واللَّمحُ: النَّظر بالعَجَلَةِ، وقِيلَ: لا يكونُ اللَّمحُ إلّا مِنْ بَعِيدٍ، واللُّمّاح: الصُّقور الذَّكيّة[9]، ومَلامِحُ الإنسان: ما بَدا من محاسِن وجهه ومساوئه، وقيل: هو ما يُلْمَحُ منهُ: واحدتها لَمحةٌ، على غير قِياس، ولم يَقولوا: مَلْمَحَةٌ[10].

والمقصود بلَمحِ البَصَرِ في الآية: تَوَجُّهُهُ إلى المَرْئِيِّ؛ لأنَّ اللَّمحَ هو النَّظَرُ، والمُراد:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 229، وسيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 204.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 623.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوع).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سوع).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (سوع).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 230.
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لمح).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (لمح).
(10) ابن سِيدَه، المُحكَم: (لمح).

تَحَقُّقُ الوُقوعِ بِدونِ كُلْفَةٍ؛ لِأنَّ لَمحَ البَصَرِ هوَ أمكَنُ وأسْرَعُ حَرَكاتِ الجَوارِحِ، ويجوز أن يكون المُراد منه تَحَقُّقَ الوُقوعِ بِدونِ مَشَقَّةٍ ولا إنظارٍ عند إرادَةِ اللّه تعالى وُقوعه[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كـمـالُ قـدرة العليّ العظيم يتجلّى في علمه غيبَ السّموات والأرض، وقدرته على كلّ شيء

للّه وحْدَه مُلْكُ ما غاب عن عِبادِه في السَّمَواتِ والأرضِ، وهو العالمُ بكُلِّ شَيءٍ مِن الغُيوبِ سبحانه دونَ الآلهةِ التّي تُعبَدُ مِن دونِه، ودونَ كُلِّ مَن سواه، لا يَملِكُ ذلك أحَدٌ غَيرُه، ولا اطِّلاعَ لأحدٍ على شَيءٍ مِن الغَيبِ إلّا أن يُطلِعَه اللّهُ عليه، وما أمرُ قيامِ السّاعةِ في سُرعةِ وُجودِها، وبَعثِ الخَلقِ وسُهولتِه إلّا كنَظرةٍ سَريعةٍ مِن البَصَرِ أو هي أسرَعُ مِن ذلك، إنَّ اللّهَ قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ، ولا يُعجِزُه شَيءٌ، ومن ذلك قدرتُه على إقامةِ السّاعةِ، والمجيءِ بها في أسرعِ ما يكونُ؛ فهو سبحانَه يقولُ للشَّيءِ: كُنْ فيَكونُ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾:

حرف المعنى ذو أثر في الدّلالة، ضمن سياق الآية الكريمة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تحتمل وجهيْن:

الأوّل: أنّها استئنافيّة[3]، والمعنى أنّه لمّا فرغ من ذِكْر المَثَلَين استأنف بمدح نفسه بأنّ علم غيب السماوات والأرض مختصٌّ به سبحانه دون غيره[4].

الثّاني: أنّها عاطفة[5]، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 230.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 314، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 218، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 658.
(3) مُحمّد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 322، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 346، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 361، وبهجت صالح، الإعراب المُفصّل: 6/ 185.
(4) مُحمّد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 310.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 220.

وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، والمعنى المشترك بين الجملتيْن أنّهما تتحدّثان عن علم الله، إلّا أنّه في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، نصّ على تمام العلم وشمول القدرة واختصاصه بعلمِ غيب السّموات والأرض دون غيره.

دلالة اللّام في شبه الجملة ﴿وَلِلَّهِ﴾:

اللّهُ وحده مالكُ السّموات والأرض، والعالمُ بغيبهما

اللّامُ في ﴿وَلِلَّهِ﴾ لامُ المِلك، وهو مِلكُ إحاطةِ العلم؛ لأنّ الإخبار بأنّها مِلكٌ لله يقتضي بطريق الكناية أيضًا أنّه عالم بها، ولامُ المِلك أفادتِ الحصر، والمعنى: الإخبارُ بأنَّ الأشياءَ الخَفيَّةَ والعوالمَ الَّتي لا تَصِلُ إلى مُشاهَدتِها حواسُّ المخلوقاتِ الأرضيَّةِ مِلكٌ للهِ وحده؛ ووحده العالمُ بها، فالعلم بالمغيّبات ليس إلّا لله، وهو وحده يختصّ بعلم الغيب لا يشاركه فيه غيرُه ولا يعلمه غيره، وهو ما غاب فيهما عن العباد، بأنْ لم يكنْ محسوسًا ولم يدلّ عليه محسوس[1].

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿وَلِلَّهِ﴾:

في التّقديم تأكيدٌ بأنّ غيبَ السّموات والأرض، منحصرٌ بالله وحده

قدّم البيانُ القرآنيّ الجارّ والمجرور ﴿وَلِلَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ للاهتمام، ولإفادة تأكيد الحَصْر والتّخصيص؛ أيْ: لله وحده لا لأحدٍ غيره سبحانه غيبُ السماوات والأرض؛ لأنّ الحصر مُستفاد من لام المِلْكِ[2]، والمَعْنَى: غيب السَّماوات والأرْض مقصور على الاتّصاف بكونه لله تعالى لا يتخطّى إلَى غيره، فهو من قصر المَوْصوف عَلَى الصّفَة لا العكس؛ إذ لا معنى له[3].

الغرض من التّعبير بالمصدر ﴿غَيۡبُ﴾:

غيب: مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ أيْ: الأشياء الغائبة[4]، وقد

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 235.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 229.
(3) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 10/ 241.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 229.

عبّر به البيان الإلهيّ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ للدّلالة على التّأكيد والمبالغة الّتي يقتضيها التّعبير بالمصدريّة، فيشمل كل ما يُطلق عليه غيب؛ أيّ: المبالغة والتّأكيد على شمول علم الله تعالى لكل غيبٍ في السّماوات والأرض، كما أنّ في التّعبير بالمصدر معنى الثّباتِ والدّوام والاستمرار؛ أيّ: ثبات ودوام علمه سبحانه بغيب السّماوات والأرض.

إفـادة التّوكيد والمبـالـغـة، في إحـاطـة علـم الله تعالى بكلّ مستور

سرُّ إضافة الغيب إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

أضافَ البيان الإلهيّ لفظ ﴿غَيۡبُ﴾ إلى السّموات والأرض، في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لإفادة أمور؛ منها: لإفادة العموم؛ فالمصدر المُضاف من صيغ العموم، فأفاد أنّ كلّ غيبٍ ممّا فيهما مُختصّ به تعالى لا يعلمه إلّا هوَ، لا تخفى عليه خافية ممّا فيهما، فإضافةُ الغيب للسّماوات والأرض للاسْتغْراق[1].

بيانٌ لعمومِ علمِ اللهِ وتمامه، بما يُفيدُ توبيخَ مَنْ لا يعبده

ومـــن فوائد الإضافة هنا أيضًا بيـــان اختصاصِ علم الغيب به تعالى من حيث المعلوميةُ حســـبما يُنبئ عنـــه عنوانُ الغيبية، لا من حيث المخلوقيّةُ والمملوكيّةُ، وإن كان الأمر كذلك في نفس الأمر[2].

وللإشعار بأنّ علمه سبحانه حضوريٌّ؛ فإنّ تحقّق الغيوبِ في أنفسها عِلمٌ بالنّسبة إليه تعالى ولذلك لم يقل: (ولله علمُ غيبِ السّماوات والأرض)[3].

وللإشارة إلى تمام علمه سبحانه، فإنّ الّذي يعلمُ كلّ ما غاب عنّا في السّموات والأرض، يعلم بطريق الأولى كلّ ما ندركه ونشهده أيضًا.

وقد أفادتِ الإضافةُ بناءً على المعاني السّابقة التّوبيخَ للمشركين والتّقريع لهم؛ أيّ إنّ العبادة إنّما يستحقّها مَن كانت هذه صفته

(1) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 10/ 241.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 131.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 131.

لا مَن كان جاهلًا عاجزًا لا يضرّ ولا ينفع ولا يعلم بشيء من أنواع العلم[1]، وفيها تهديدٌ لهم بأنّ ما تفعلونه من الأعمال الشّركيّة كلّها يعلمه الله، ولنْ يُفلتَ عملٌ واحد من أعمالكم بلا حساب وعقاب.

معنى (ال) في لفظي: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

بيان إحاطة علم اللـه تـعـالى، بغيب السّموات والأرض

لام التّعريف في لفظتي السّموات والأرض في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، جنسيّةٌ تُفيدُ العمومَ؛ فهي تشملُ جنسَ السَّمواتِ وجنسَ الأرض؛ فالله يعلم كلّ ما فيهما لا يغيبُ عنه شيء، وفي العموم دلالةٌ على المبالغةِ في كمالِ علم الله تعالى، وهذا يدلّ على إحاطة علم الله بكلّ موجود.

وممّا يدلّ على أنّ المُرادَ بـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ جنسُهما صحّةُ عطف الأرض على السّموات؛ إذ هو عطفُ جنسٍ على جنسٍ لا عطفُ الجمعِ على المفرد، حتّى يلزمَ تركُ الأوْلى من رعايةِ التَّطابق بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه.

الغرض من تقديم لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

غيبُ السّمواتِ أبلغُ في الدّلالة، على كمالِ علم اللـه تـعـالى وقدرته

قدّم القرآن الكريم ذِكْر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لأمور:

الأوّل: مناسبةً للسّياق؛ إذ السّياق في الدَّلالة على كمالِ علمِ الله تعالى وقدرته، وعلمُ غيبِ السّماوات أبلغُ من علمِ غيبِ الأرض، ومَن يعلم غيبَ السّماواتِ يعلم غيبَ الأرض.

الثّاني: مراعاةً لسبقِ خلقِها على خلقِ الأرض[2]؛ فقُدّمت السَّموات على الأرض مراعاةً لترتيبِ الوجود.

الثّالث: لأنّ السّموات أعظمُ من الأرض شأنًا وخَلقًا، وأشرفُ ذاتًا

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 218.

(2) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/ 92، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 83، والزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/ 255.

وصفةً[1]، فهي متعبَّدُ الملائكة المُقدّسين على تفاوتِ مراتبهم، وقِبلةُ الدُّعاء، ومعراجُ الأرواح الطّاهرة، ولا معاصي ومنْكرات تحصل فيها، بخلاف الأرض الّتي وإنْ كان فيها الأنبياء، فقد وقعتْ فيها المعاصي، وحوت على المُفسدين[2]، ولذا فتقديم ذِكْرِ السّماوات من باب التّدرّج من الأعلى إلى الأدنى.

الرّابع: موافقةً لعادةِ القرآن الّتي هي تقديمُ السَّمواتِ على الأرضِ، ولم تتقدّم الأرضُ على السَّموات إلّا استثناءً.

نكتة جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

من محسِّنات الكلام المؤاخاةُ بين الألفاظ، وقد عُدل عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ فقد جُمع أحدُ المتقابلَيْن وهو السّماوات؛ وحكمةُ ذلك أمور:

علـمُ الأفـخـمِ والأشــرفِ دالّ على العلم بما هو دونه

الأوّل: الجمعُ أبلغُ في التَّفخيم من الوحيدِ، وذلك لكون السَّمواتِ أشرفَ من الأرض، وعلم غيبِ الأفخمِ والأشرفِ علمٌ لما هو دونه.

الثّاني: إرادة للسّمواتِ السّبعِ ولأجرامها العظيمة ذاتِ النّظام الخاصّ المتفاوتة بالصّفات والآثارِ والحركاتِ وما فيها من أسرار، وأمّا الأرض فهي من جنسٍ واحدٍ، وهو الصَّعيدُ، ويكون في الجمعِ مبالغةٌ في بيان كمال علمه سبحانه.

الثّالث: تخفيفًا في النّطق؛ لثقلِ جمعِ الأرضِ ومخالفته للقياس (أرضون، أرضين)، ولهذا لم تردْ بهذه الصّيغة في القرآن، ولَمّا أُريد الجمع قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطّلاق: 12][3].

بلاغة الطّباق بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

جمعَ البيان القرآنيّ بين لفظيْن متقابليْن في المعنى، هما:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 468.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 77.
(3) السّيوطيّ، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: 2/ 355.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، بما يزيد الكلام حُسنًا وطَرافة، ويدلّ على كمالِ علمه سبحانه، الّذي يحيط بكلّ شيء؛ فهو لا يقتصرُ علمه على غيبِ السّموات فقط، أو الأرضِ فقط؛ بل إنّ علمه يشمل غيب السّموات والأرض.

تقابلُ غيبِ السّماءِ مع غيبِ الأرضِ، يدلُّ على كمالِ علمِ الله

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ تحتمل وجهيْن:

الأوّل: عاطفة[1]، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ووجهُ العطف أمران:

استئنافٌ للحديثِ عن تمامِ القُدرة، أو عطفٌ لبيانِ الغيبِ المُستأثَر به

الأوّل: أنّ الله يعلمُ ما يفعله الكفّار؛ لأنّه يعلمُ الغيب ويعلمُ الشّهادة بالأوْلى، وأيضًا يملكُ معاقبة الكفّار على ما يفعلونه متى شاء، في أسرع ما يتصوّره البشر.

الثّاني: جاءتْ الآية بهذا الغَيْب الوحيد (علم السّاعة) بعد ذكر علمه بالغيب ﴿غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2].

الثّاني: استئنافيّة[3]، بعد أنْ فرغَ سبحانه من الحديثِ عن تمامِ علمه استأنفَ الحديثَ عن تمام قدرته.

بلاغةُ القصر بالاستثناء المفرّغ ودلالته:

تأكيد سرعةِ قيامِ السّاعة، إنذارٌ وتحذيرٌ للمشركين

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ حرفُ نفي، و﴿إِلَّا﴾ استثناءٌ مُفرّغ يُفيدُ القَصر، وهو قصرٌ بالنّفي والاستثناء، والغرضُ البلاغيّ منه هو حصرٌ وتأكيدُ كون أمرِ السّاعة ليس إلّا كلمح البصر، ونفيُ أنْ يكونَ غيرَ ذلك، وهذا الأسلوبُ يؤكّد ويبيّن سرعةَ قيامِ السّاعة عند إرادةِ الله ﷻ لها، والمقصودُ:

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 346، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 361.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8107.
(3) مُحمّد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 322، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه، وبهجت صالح، الإعراب المُفصّل: 6/ 185.

إنذارُهم وتحذيرُهم مِن أنْ تَبْغَتَهم السّاعةُ؛ لِيُقلِعوا عمّا هم فيه مِن وقتِ الإنذارِ[1].

معنى (اللّام) في لفظ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾:

(اللّام) في لفظ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ عهديّة، و﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: علمٌ بالغلبة على وقتِ فناء هذا العالم[2]، وهو الوَقتُ الّذي تقومُ فيه القيامةُ، وسُمِّيَت ساعةً؛ لأنَّها تَفجَأُ الإنسانَ في ساعةٍ فيَموتُ الخَلقُ بصَيحةٍ واحدةٍ[3]، أو لسرعةِ ما يقعُ فيها من حساب، أو لأنّها على طولها، زمنها يسيرٌ عند الله تعالى[4].

السّاعةُ هي يومُ القيامة الّذي يقعُ بغتة فيفجأ النّاس جميعًا

سرّ تخصيص السّاعة بالذّكر:

خصّ البيانُ القرآنيّ السّاعةَ بالذِّكر من بين علوم الغيب الّتي لا تُحصى في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ لأمريْن:

الأوّل: لكثرة المماراة والمجادلة فيها، وتكذيب الأمم رسلها في إخبارهم بها، فهي محطّ الأنظار، ومحلّ البحث والجدل بين المُنكرين والموحّدين، لما فيها من غيوبٍ مُتعلّقة فيها[5].

الثّاني: لأنّها من أعظم ما يدلّ على تمام علمه وشمول قدرته، فلا يُعجزه أمرُ السّاعة، وبعثُ الأجساد بعد موتها، كما لا يُعجزه شيء، ولذا كثُرَ الحديثُ عن قيامِ السّاعة وإثبات البعث وخاصّة في السّور المكّيّة.

قيامُ السّاعةِ من أعظمِ الدلائل على تمامِ علمه، وشمولِ قدرته

نوع الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾:

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ أداةُ حصر[6]، ونوعُ

تأكيد سرعةِ قيامِ السّاعة، ومباغتتها للبشر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 230.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 150، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 250.
(4) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 204.
(5) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 658.
(6) بهجت صالح، الإعراب المُفصّل: 6/ 185.

الاستثناء فيها مُفرّغٌ[1]؛ لأنّ ما قبله مفتقرٌ إليه، فقوله: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ خبرٌ للمبتدأ ﴿أَمۡرُ﴾، والمُستثنى منه محذوف، والتّقدير: وما أمر السّاعة في قربها إلّا كلمح البصر، وقد أفادت الحصر والتّأكيد على سرعة قيام السّاعة.

سرُّ الإضافة في قوله: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾:

في طرفةِ عينٍ، تقوم السّاعةُ، وهو عليها قادرٌ

لمح البصر: انتقالُ الحَدَقةِ من وضع إلى وضع[2]؛ أيْ: رجع الطّرفِ من أعلى الحدَقة إلى أسفلها، واللّمحُ: النّظر بسرعة، أو اختلاس البصر بحركة سريعة وسهلة، وهذه الحركة وإن قصرت فهي حركةٌ آنيّةٌ لها هويّةٌ اتّصاليّةٌ مُنطبقةٌ على زمان له هويّةٌ كذلك قابل للانقسام إلى أبعاض هي أزمنة أيضًا[3]، وهذه السّرعة هي أقلّ سرعة يعرفها العرب؛ فمن أمثالهم: أسرع من العين، ومن طرف العين، ومن لمح البصر، وأسرع من اليد إلى الفم[4]، وقال الزّجّاج: "ولم يُرِد أنّ السّاعة تأتي في لمح البصر، وإنّما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها؛ لأنّه يقول للشّيء كُنْ فيَكونُ"[5]، وقد عبّر القرآن بذلك في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ [النّمل: 40].

ولهذا عبّر البيانُ القرآنيّ بهذا التّركيب للإشارة إلى سرعة مجيء السّاعة بدون مهلة حسبما عبّر عنها في فاتحة السّورة الشّريفة بالإتيان[6] بصيغة الماضي المُفيد لتحقّق الوقوع، وإلى سهولة قيامها فهي أهون على الله وأيسر من لمحِ البصر[7]، فأمرُ تدبيرها

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 322.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8108.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 131.
(4) القدوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النّحل من دقائق المعاني، ص: 155.
(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 214.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 131، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 204.
(7) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 6/ 543.

لا يحتاجُ إلى وقتٍ ولا إلى جهد؛ إذْ هي في طرفةِ عين حاضرة مهيَّئةٌ بكلّ أسبابها.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلۡبَصَرِ﴾:

استشعارُ الإنسانِ قدرةَ اللهِ على قيامِ السّاعةِ كلّما حرّك طرفَ بصره

(اللّام) في ﴿ٱلۡبَصَرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ عهديّة، ومعهودها ذهنيٌّ، والمقصودُ هي العين الباصرة، وقد أتى القرآن الكريم بما يعهدونه ليستشعرِ كلُّ إنسانٍ قدرةَ اللّهِ سبحانه على قيامِ السّاعةِ وسرعتها وسهولتها عليه كلمّا حرّك الإنسان طَرْفه.

بلاغة التّشبيه في قوله: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾:

تشبيهٌ يصوّرُ قدرةَ اللهِ على قيامِ السّاعةِ وعلى سرعةِ وقوعها

أمرُ السّاعةِ مُشبَّهٌ، ولمح البصر مُشبَّهٌ به، وأمّا وجه الشَّبه فيحتمل معنيين:

الأوّل: وجهُ الشَّبَهِ هو كونُ لَمحِ البصَرِ مَقدورًا بدونِ كُلفة؛ لأنَّ لَمحَ البصَرِ هو أمكَنُ وأسرَعُ حرَكاتِ الجَوارِح؛ فهو أيسَرُ وأسرَعُ مِن نقلِ الأرجُلِ في المشي، ومِن الإشارةِ باليَدِ[1]؛ أيْ: أمرُ السّاعَةِ أهون على الله وأيسر من لمح البصر[2]، فيتحقَّق وقوعه بدون مشقّة ولا إنظار عند إرادة الله تعالى وقوعه، وبذلك يكون الكلام إثباتًا لإمكان الوقوع وتحذيرًا من الاغترار بتأخيره.

الثاني: وجهُ الشّبه السُّرعةُ؛ أيْ: سُرعة الحُصولِ عندَ إرادةِ اللّه؛ أيْ: ذلك يَحصُلُ فجأةً بدونِ أماراتٍ، كقولِه: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةً﴾ [الأعراف: 187]، والمقصودُ: إنذارُهم وتحذيرُهم مِن أن تَبْغَتَهم السّاعةُ؛ لِيُقلِعوا عمّا هم فيه مِن وقتِ الإنذارِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 230.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/ 543.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 230.

دلالة ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾:

تراوح حرف المعنى، بين الإضراب والتّخيير والشّكّ والإبهام على السّامع

﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ تحتمل عدة معانٍ:

الأوّل: للإضرابِ الانتقاليِّ يعني "للانتقالِ والترقّي لا للإبطال"[1]؛ أيْ: إضرابًا عن التَّشبيهِ الأوَّلِ بأنَّ المُشبَّهَ أقوى في وجهِ الشَّبهِ من المُشبَّهِ به[2]، والمقصود به تكوين صورة ذهنيّة عند السّامع عن سرعة قيام السّاعة عند إرادة اللّه ﷻ؛ أيْ: إنّ السّرعة في الحصول في أمر السّاعة أقوى منها في لمحِ البصر.

الثّاني: ﴿أَوۡ﴾ للتّخيير والتّساوي في التّشبيه؛ أيْ: إنّهما سواء في صحّة التَّشبيه، وأنت مُخيَّر في التّشبيه بهما، أو بأيهما شئت[3]، وللتّخيير بالنّسبةِ لقدرةِ اللّه تعالى[4].

الثّالث: ﴿أَوۡ﴾ للإبهام على المُخاطَب[5].

الرّابع: ﴿أَوۡ﴾ للشّكّ؛ أيْ: الشّكّ ليس للمتكلّم؛ بل لغيره مثل (لعلّ) الواقع منه تعالى حيث حُمل عَلَى ترجّي المخاطب[6].

سر التّعبير بالضّمير ﴿هُوَ﴾ في السّياق:

سرعةُ قيامِ السّاعةِ أمرٌ مؤكّد، لاريب فيه

﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ "ضَمِيرٌ لِلْأَمرِ"[7]؛ أيْ: أمر قيام السّاعة أقربُ من لَمح البصر، وقد أتى به البيانُ القرآنيّ في الآية، ولم يَقُلْ: (وما أمر السّاعة إلّا كلمح البصر أو أقرب)، مبالغةً في توكيدِ سرعة قيامها؛ إذ إنَّ ﴿هُوَ﴾ توكيد لفظيّ.

(1) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد: 11/ 343.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 229.
(3) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد: 11/ 343 - 344.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 204.
(5) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد: 11/ 343 - 344.
(6) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد: 11/ 343 - 344.
(7) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 271.

المُراد بالقرب في قوله: ﴿أَقۡرَبُۚ﴾:

قـيـامُ الـسّـاعـة قـريـبُ الـزّمـان والمكان، وأسرع حصولًا من لمح البصر

المُرادُ بالقُربِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ إمّا القُربُ المكانيُّ؛ كنايةً عن كَونِه في المقدوريَّةِ بمنزلةِ الشَّيءِ القريبِ التَّناوُلِ، كقولِه تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16]، أو قُرب الزَّمانِ؛ أيْ: أقربُ مِن لَمحِ البصَرِ حِصَّةً؛ أيْ: أسرَعُ حُصولًا[1].

وقيل: تحقيق أقرب في أنّ لمح البصر فعلان هما: وضع الجفن ورفعه، وأمّا قيام السّاعة ففعل واحد[2]، أو معناه أنّ قيامَ السّاعة، وإنْ تراخى فهو عند الله كالشّيء الّذي تقولون فيه هو كلمحِ البصر، أو هو أقربُ مبالغةً في استقرابه[3].

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ بين آية النّحل (77)، وآية القمر (50):

مراعاةُ المَقامِ بين التّهديدِ المباشرِ، وبين التّنبيهِ والتّخويفِ

عبّر البيانُ الإلهي في هذه الآية بقوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾؛ أيْ: مع ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ بينما جاء في سورة القمر بدون ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾؛ فقال: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر: 50].

ويمكن أنْ يُطرح سؤالٌ عن السّبب في ذلك؟ فيجابُ عن ذلك بأنّ آية النّحل هذه جاءتْ تهديدًا مباشرًا للكفّار بعد ضَرْب مَثَلَيْن على بطلانِ شركهم، كما أنّ المقامَ للتّحذيرِ من مفاجأةِ النّاس بها قبل أنْ يستعدّوا لها، فهو حقيقٌ بالمبالغة في التّقريب، فناسبَ ذلك التّعبير بقوّةٍ عن سرعة حصولها بجعلِ صفةِ سرعةِ الحصولِ في أمرِ السّاعةِ أقوى منه في لمحِ البصر؛ أيْ: إنّ أمرها أقربُ وأسرعُ زمانًا من لمحِ البصر، أمّا آية القمر فإنّه لتمثيلِ أمر الله، وذلك يكفي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 229.
(2) الكرمانيّ، غرائب التّفسير وعجائب التّأويل: 1/ 614.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 235.

فيه مجرّد التّنبيه؛ إذ لا يتردّد السّامع في التّصديق به، وإنْ كان سياقها سياق بيانٍ مع تهديدٍ للكفّار - ولكنّه ليس بشدّة التّهديد في سورة النّحل - فلم يحتجْ إلى المبالغةِ في التّقريبِ كما في آية النّحل[1] فالتّشبيه في سورة النّحل أدلّ على سرعة الوقوع من التّشبيه في سورة القمر، لكنّهما متقاربان تقارب الزّمن بين "لَمَحَهُ بصري"، و"لَمْحَتُه ببصري"، والأدلّ على السّرعة وقع متناسبًا مع مطلع سورة النّحل، والّذي يليه في الدّلالة على السّرعة ما في سورة القمر، وهي مفتتحة بـ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1] وما في النّحل تناسب مع مفتتحها ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1] والفرق بينهما في الدّلالة على السّرعة هو الفرق بين الاقتراب والإتيان، ولم يقع مثل هذيْن التّشبيهيْن في سورة أخرى سواهما لتفرّدهما فيما افتتحتا به وهذا هو عين الإعجاز.

نكتة فصل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

قـــدرةُ الـلـه المطلقة، تعليلٌ وبـــرهـــانٌ على قيام السّاعة

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عن الّتي قبلها ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، ولم يأتِ بينهما بالعاطف؛ لِما بين الجملتيْن من كمالِ اتّصال؛ وذلك لوقوع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليلًا لما قبله؛ أيْ: يكون أمر السّاعة مُتحقّقًا وسريعًا؛ لأنّ الله قادر على كلّ شيء[2]، فأمره في الجلالة والعِظَم والسّرعة والإتقان يجلُّ عن الوصف، وتقصر عنه العقول، ولا شكّ فيه ولا تردّد، فمقدوراته تعالى لا تتناهى[3].

وتأكيدًا لشمول قدرته فإنّه سبحانه لا يُعجز قدرتَه شيء سواء أكان هذا الشّيء يتعلّق بأمر قيام السّاعة في أسرع من لمح البصر أم بغير ذلك من الأشياء[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 221.
(2) مُحمّد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 312، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8111.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 296، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 395.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 290، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 205.

وتدليلًا؛ باعتبار قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ كالبرهان على إمكان حدوثها وسرعة وقوعها؛ أيْ: إنَّ الله قادر على ما يشاء، لا يمتنع عليه شيءٌ أراده، فهو قادر على إقامتها في أقرب من لمح البصر[1].

بلاغة توالي المؤكّدات في فاصلة الآية:

أكّد ﷻ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بعدّة مؤكّدات:

تأكيد كمال قدرة الله، تهديدٌ للكفّار، وتحذير للفجّار

أوّلها: الجملة الاسميّة، الّتي تَدلُّ على الثّباتِ وقوّةِ الحُكْمِ وبَقائِهِ، فقدرة الله تعالى على كلِّ شيء ثابتة دائمة.

وثانيها: ﴿إِنَّ﴾ الدّالّة على تأكيد الخبر وهو قدرة الله تعالى؛ إذْ إنّ الحرفَ (إنّ) يفيدُ توكيد النّسبة بين المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه في الجملة.

وثالثها: تقديم شِبْه الجُملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على الخبر ﴿قَدِيرٞ﴾؛ الّذي يدلّ على الاهتمام بالمُقدّم وتشويق وتطلّع إلى المُؤخّر وهو وصف ﴿قَدِيرٞ﴾[2].

وكلّ هذه المُؤكّدات مجتمعة أفادتْ المبالغةَ في تأكيد كمالِ قدرة الله تعالى وإحاطته بكلّ شيء، وأنّه لا يُعجزه شيء، وفيه أيضًا زيادةٌ في تهديدِ الكفّار، وتحذيرٌ لهم لما يعملونه؛ أيْ: إنّ الله قديرٌ على حسابكم وعقابكم.

الغرض من تقديم شبه الجملة في السّياق:

التّقديم اهتمامٌ بالمُقدَّم، وتشويقٌ للمؤخّر، وتأكيدٌ لمعنى الاقتدار

قدّم البيانُ القرآنيّ شبه الجملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، ولم يقل: (إنّ اللّهَ قديرٌ على كلِّ شيء)، للاهتمام والتّقوِّي؛ أيْ: للاهتمام بالمقدّم وللتّشويق للمُؤخَّر، ولتأكيد معنى الاقتدار على كلِّ شيءٍ، فإنَّك إذا ما سمعتَ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ثمَ لمّا يصل إلى سمعك قوله: ﴿قَدِيرٞ﴾ تطلّعت إلى الخبر

(1) مُحمّد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 312.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4229.

ما يكون، فيأتيك، وأنت المُتطلّع إلى أنْ تعرفه من بعد أنْ ملأ سمعك وقلبك بالتّهديد والوعيد الّذي فاضت به الجُمل السّابقة، فيستقرّ المعنى في قلبك ويقيم فيه[1].

كما أنّ هذه عادة القرآن في كلّ المواضع المشابهة؛ أيْ: لم يأتِ في القرآن الكريم تقديم ﴿قَدِيرٌ﴾ على متعلّقه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ولم يأت هذا التّركيب في غير الفواصل[2].

الغرض من تنكير ﴿شَيۡءٖ﴾:

قدرةُ الله بالغة شاملة لكلّ شيء

الغرضُ من تنكير لفظة ﴿شَيۡءٖ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ العموم؛ وقد أفاد هذا العموم المبالغة في الشّمول؛ أيْ: إنّ قدرة الله تعالى تشمل كلَّ شيء مهما كان وفي أيِّ حالٍ كان، كما أنّ لفظ شيء لم يَرِد في القرآن إلّا نكرةً.

سرُّ تذييل الآية بصفة القُدْرة:

في التّذييل دليلٌ على تمام الإرادةِ والقدرة، وعلى قيامِ السّاعة

ذيّلَ البيانُ الإلهيُّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ بصفة القدرة؛ مبالغةً وتأكيدًا وتقريرًا لمضمون ما قبله: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ من كمالِ علمه وقدرته وعمومها وشمولها، فهو سبحانه تامّ العلم وتامّ القدرة لا يُعجزه شيء، فإنّ كمال قدرته تعالى على جميع الأشياء موجِبٌ لقدرته على ما ذكر من قيام السّاعة بلمح البصر، ودليلٌ على قوّة القدرة المقتضية تمام الإرادة والعلم.

وفي هذا تحذيرٌ وتهديدٌ للكُفّار لما يعملونه؛ أيْ: إنّ الله قديرٌ على حسابهم وعقابهم، إذ في إثباتِ صفة القدرة بعد إثباتِ صفة العلم يكتملُ وجهُ التّحذير والتّهديد للكافرين.

فائدة إظهار اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

أتى البيانُ القرآنيّ بالاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ - الجامع لصفاتِ

(1) محمود توفيق، شذرات الذّهب - دراسة في البلاغة العربيّة، ص: 61.
(2) محمود توفيق، شذرات الذّهب، ص: 61.

الكمال والعظمةِ والجلال - في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ولم يَقُلْ: (وإنّه على كلّ شيء قدير)؛ لتكون جملة التّذييل مستقلّة بنفسها فتجري مجرى الأمثال، وكذلك في إظهارِ الاسمِ الجليل تربيةُ المهابةِ، والتّخويفُ والتّهديدُ لِمَن يُشرك باللّه ويُنكر البعث، وهذا يتناسب مع السّياق.

اسـمُ اللـهِ الأعظم، يبعثُ في النّفسِ مهابتَه وتعظيمَ قدرته

غرض التّعبير بصيغة المبالغة ﴿قَدِيرٞ﴾:

﴿قَدِيرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، بمعنى قادر، إلّا أنّ البيانَ الإلهيّ عبّر هنا بلفظ ﴿قَدِيرٞ﴾، وهو من صيغ المبالغة على وزن فعيل، بما يدلّ على زيادة الإبانة عن إبلاغه في تحقيق الفعل وكمال إيجاده، وأنّ ذلك ثابتٌ لازمٌ له ﷻ[1]، وفيها دلالةٌ على الكثرة؛ لأنّ السّياق ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يُفيد العموم والكثرة، فناسب التّعبير بصيغة المبالغة ﴿قَدِيرٞ﴾، ومن عادة القرآن - وهي عادةٌ أغلبيّة - أنّه حيث يُعمّم القدرة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أو يُطلقها يأتي بصيغة المبالغة ﴿قَدِيرٞ﴾، وحيث يُقيّدها يأتي باسم الفاعل ﴿قَادِرٞ﴾ [الأنعام: 37]، وهذا هو الفارق الدّلاليّ بين اسم الفاعل وبين صيغة المبالغة الّتي تدلّ على التّكثير[2]، فهو بليغ القدرة لا يمتنع عليه شيءٌ أراده، وقدرتُه مُطلقَةٌ محيطة لا يُعجزه شيءٌ.

قدرةُ اللهِ مطلقةٌ بالغةٌ محيطةٌ لا يُعجزها شيءٌ

الغرض من تنكير لفظ ﴿قَدِيرٞ﴾:

نكّر البيان الإلهي ﴿قَدِيرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ لإفادة معنى التّعظيم والتّفخيم لقدرته سبحانه؛ فهو بالغ القدرة إلى حدّ لا يمكن الزّيادة عليه القادر على كلّ شيء، ولا يُعجزه شيء.

اللـه العظيم القدرة، هو الرّبّ المستحقّ أن يُعبد بيقين

(1) محمود توفيق، شذرات الذّهب، ص: 61.
(2) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة: 4/ 325.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(لَمحُ البَصَرِ) و(ارتدادُ الطَّرْفِ):

لمـــحُ الـبـصـر النّظرةُ الخفيفة والـسّـريـعـة، وارتـداد الطّرف مقدار ما تُفتحُ العين ثمَّ تَطْرِفُ

يوجد تقاربٌ دلاليّ بين لمح البصر وارتداد البصر؛ فكلاهما يشتركان في معنى نظر العين، ويُعبّر بهما عن السّرعة، ولكن توجد بعض الفروق اللّغويّة بينهما وإيضاح ذلك بأنّ اللّمح أصله يَدُلُّ عَلَى لَمعِ شَيءٍ[1]، واللَّمحُ: سُرْعةُ إبصارِ الشَّيْءِ كاللّمع، ولَمَحَ: اخْتَلَسَ النَّظَرَ، وكذا إذا أبصره بِنَظَرٍ خَفِيفٍ، واللَّمحةُ: النَّظر بالعَجَلَةِ، وقِيلَ: لا يكونُ اللَّمحُ إلّا مِنْ بَعِيدٍ[2].

وأصل الطَّرْف هوَ تَحْرِيكُ الجُفونِ في النَّظَرِ، يُسَمّونَ العَيْنَ الطَّرْفَ مَجازًا[3]، ويُعبَّرُ به عن النَّظَر إذ كانَ تحريكُ الجَفْنِ يُلازمُه النَّظَرُ[4]، والطَّرْفُ: إطْباقُ الجَفْنِ عَلَى الجفْن، وارتداد الطّرف بمِقْدارِ ما تَفْتَحُ عينَكَ ثمَّ تَطْرِفُ، وقيل: بمِقْدارِ ما يَبْلُغُ البالِغُ إلى نهايَةِ نَظَرِكَ[5].

إذن لمحُ البصر هو لقطةٌ خفيفةٌ وسريعةٌ لشيء يعرض في مجال الرّؤية كما يلفت الإنسانُ حدقتَه دون وجهه نحو أحَد ثمّ يرُدُّها بسرعة[6]، بينما ارتداد الطّرف مقدار ما تُفتحُ العين ثمَّ تَطْرِفُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لمح).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (لمح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).
(4) الرّاغب، المُفردات، ص: 517، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: 2/ 398.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (طرف).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (لمح).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»